شهادة من الهند

كان لما نشرناهُ من اقوال علماء الهند وقع عظيم عند قرّاء المقتطف ولاسيما مقالة امير علي القاضي. ولا يزال الكتّاب والخطباء يستشهدون بها لما حوت من الحقائق التي تجب اذاعتها في القطرين الشامي والمصري لشدّة الحاجة اليها

وقد اطلعنا الآن على مقالة كتبها امير مستقلٌّ من امراء الهند نُشرت في مجلة القرن التاسع عشر وفيها من الحقائق ما لا بدَّ من اذاعتهِ في كل الاقطار الشرقية لكي يرى ملوكنا وامراؤنا وعلماؤنا وادباؤنا ما يرتئيهِ ويقولهُ الملوك الذين انار العلم بصائرهم وعرفوا كيف تساس الرعية سياسة توردها موارد السعادة

والكاتب هو المهرجا غايكوار امير بارودا احدى امارات الهند المستقلّة وقد كتب بالانكليزية لانهُ عالم بها متقن لها. وسنقتطف من مقالتهِ ما تمسُّ الحاجة الى معرفتهِ ويضطرنا الاختصار ان نتكلم عنهُ بضمير الغائب الاَّ حيث نترجم كلامهُ حرفيًّا

قال ان انحراف صحتهِ اضطرهُ ان يكثر السفر فقد رحل الى اوربا خمس مرات حتى الآن اقام فيها ثلاث سنوات ولكن اكثر اقامتهِ في قصرهِ الجديد في بارودا وقد انفق عليهِ مئتي الف جنيه. واقليم بارودا حارٌّ جدًّا لا يحتملهُ الذين يشتغلون اشغالاً عقلية شاقّة فيضطر ان يخرج منها كل سنة ولو بضعة اشهر الى مكان معتدل الهواء. والناس في بلاد الهند يقصدون الاماكن الجبلية في فصل الصيف ولم يكونوا يفعلون ذلك قبل خمس عشرة سنة اما الآن فاكثروا من الاصطياف حتى يتعذَّر وجود البيوت الكافية للمصطافين. وليس في مملكة بارودا جبال فيضطر ان يمضي الى جبال حملايا او نلجرس مسافة ستة ايام

وهو يستيقظ الساعة السابعة صباحًا ويقوم بفروضهِ الدينية عن يد البراهمة ويأكل قليلاً من الخبز واللبن ويخرج للنزهة راكبًا على جواد او في مركبتهِ ويعود فيطالع بعض كتب الفلسفة والتاريخ ولاسيما تاريخ اليونان والرومان ويفضل المؤرخ جبون على غيرهِ ومن الكتب التي يحب المطالعة فيها كتب تكفيل ومل وفوست وسبنسر ولهُ غرام بشكسبير وبتنام في القوانين وماين في الشرائع القديمة. ويُستدل من هذه الكتب وهؤلاء المؤلفين على انهُ مغرم بمطالعة اشهر الكتب الانكليزية في الفلسفة والسياسة والتاريخ. ويتغدَّى الساعة الحادية عشرة مع اولادهِ ومن يكون عندهُ من بطانتهِ وبعض الالوان اوربي وبعضها هندي ولا تقدَّم الخمر على مائدتهِ ولا شراب آخر مسكر ولا شيء مما طبخ بلحم البقر لأن شريعة البراهمة تحرّم ذلك.

ثم ينظر في اشغال مملكتهِ . وتقدَّم الاوراق اليهِ قبل النظر فيها بيومين او ثلاثة فيطَّلع عليها ويأمر بما يشاء كتابةً ويمضي اسمهُ بيدهِ غير معتمد على الخاتم . وذكر مثالاً لذلك قال : " ان الاحكام بالقتل يحكم بها قضاة المديريات وترفع الى المحكمة العليا فان ايدتها رفع الوزير اوراقها اليَّ وكتب فيها رأيهُ ورأي وكيلهِ وهو من القضاة فاذا بقيتُ في ريب استشرت قضاةً آخرين لا اقلَّ من ثلاثة فيطالعون اوراق الدعوى كلها ويكتبون رأيهم في مذكرة يرفعونها اليَّ "

و يبقى مشتغلاً بمهام المملكة الى الساعة الرابعة او الخامسة فيمضي حينئذٍ الى حيث زوجتهُ وتلقَّب بالمهرانى والدار التي هي فيها قسم من القصر خاص بها فيقيم هناك ساعة من الزمان ثم يخرج للنزهة راكباً في مركبة يحيط بها خمسة وعشرون من الرمَّاحة حتى اذا خرج من باب المدينة ابقى منهم خمسة فقط معهُ . واذا قدَّم اليهِ احد عريضة وهو خارج الى النزهة اخذها منهُ وامرهُ ان يحضر اليهِ في يوم مخصوص لينظر في ظلامتهِ . وهو يجري في ادارة الاحكام على النسق الانكليزي . وكلما ذكر زوجتهُ في هذه المقالة لقَّبها بذات السمو او سمو المهرانى

وكثيراً ما يجول في بلادهِ متخفياً ويقابل رؤساء العشائر والقرى ويذاكرهم لكي يقف على امورهم بنفسهِ . اما عن تعلمِ الانكليزية وتعليم اولادهِ فقال ما ترجمتهُ

"لقد اقام اللورد نورثبروك المستر اليوت معلماً لي وعمري ثلاث عشرة سنة . ويسرني انني لم أُفصَل عن عائلتي ولا فُصِل بيني وبين شعبي . وانني انظر الآن الى الطريقة التي رُبيتُ بها فارى انهُ كان يمكن ان تغيَّر قليلاً فتكون انفع لي وكان يمكن ان تطال مدة تعلمي . ولقد احسن معلميَّ واوصيائي بتركي هندياً ولكن الزمان قد تغير فصار عليَّ ان اربي اولادي على اسلوب آخر ولذلك ارسلتهم الى افضل المدارس الانكليزية في اتُن وباليول ليتربوا احسن تربية انكليزية . وافضلُ دِين يدينون بهِ محبة وطنهم فاذا دانوا بهِ كانوا من خيرة رجال الهند . وقد يهملون حينئذٍ بعض العشائر الدينية الوطنية ولكنهم لا يهملون الواجب عليهم لبلادهم وشعبهم

ولقد كان لارتحالي الى اوربا فوائد جمَّة فزال من ذهن قومي ما كانوا يوجسون منهُ وهو ان الانكليز يبقونني اسيراً عندهم . وزادت رغبة شعبي في ارسال اولادهم الى اوربا للتعلُّم فيها . وترى هذه الرغبة في كل طبقاتهم حتى ادناها . والخدم الذين جاؤوا معي الى اوربا اول مرة يستاذنون الآن اذا لم آتِ بهم . وهناك اناس يقتصدون في نفقاتهم اليومية ولو كان دخلهم لا يزيد على جنيه في الشهر لكي تتيسَّر لهم الرحلة الى اوربا . وقد اخذ كبار المزارعين يبعثون بابنائهم الى اوربا ليتعلموا فيها . وجعل الناس كلهم يفهمون فائدة السفر وانهُ خير واسطة لكسب المعارف كما قال كتَّاب الهنود القدماء . وعندي ان كل اتصال بالاوربيين

مفيد لتقدُّم الهند وكل ما يمنع هذا الاتصال يؤخر نجاح البلاد . وقد حلَّ بالهند ضرر كبير في غابر الازمان من انفصالها عن سائر الممالك فجهل الهنود ما بلغهُ غيرهم من الارتقاء في مراقي العمران . ولو استطعتُ لجعلت حكومة بلاد الهند كلها تبعث كل سنة خمس مئة تلميذ الى اوربا ليدرسوا فيها العلوم والفنون والصنائع وكنت اختار هؤلاء التلامذة من نابغي الشبان ومن غيرهم لكي ينتشر العلم بين كل الطبقات والمذاهب . وعندي انهُ يحسن بامراء الهند ان يجالسوا الاوربيين في ولائمهم ولكن لا بدَّ من ان يؤخذ ذلك بالحذر اولاً لئلاَّ يثور التعصب الديني عليهم . فمنذ عشر سنوات لم يكن يسهل عليَّ ان افعل ما افعلهُ الآن من غير ان اعرّض نفسي للانتقاد الشديد . اي ان الملوك انفسهم لا يسلمون عندنا من الانتقاد اذا خالفوا عادات قومهم ولكن الملك الذي يعرف كيف يقود شعبهُ لا يتعذَّر عليهِ ان يجعلهم يرضون عنهُ ويجارونهُ "

ثم انتقد افعال الوزراء الانكليز انتقاداً لطيفاً محكماً لا نظن الاَّ انهُ يأتيهِ بفائدة كبيرة فان في بلادهِ وزيراً مقيماً من الانكليز فاذا غاب عنها سلَّم مقاليد الاحكام لوزيرهِ الوطني ولهذا الوزير المقيم فيحسن هذا الوزير التصرف او يسيئهُ حسب طبعهِ ويتعرَّض غالباً لامور لا يعنيهِ التعرُّض لها فيزيد الارتباك وتضعف سلطة المهرجا

وكانت زوجتهُ معهُ في سياحتهِ الاخيرة وزيارتهِ لمعرض باريس والظاهر انها جاءت اوربا لكي تُعمل لها عملية جراحية لم تجد طبيبة في بلاد الهند تعملها لها ولا ارادت ان يعملها طبيب . وقد كتب عنها ما ترجمتهُ

" تتمتع سموُّها هنا (اي في بلاد الانكليز) بحرية لا تتمتع بها في بارودا (اسم مملكتهِ) فانها تعيش هنا مثل غيرها من النساء الفنيات الشريفات اما في بلادنا فتتحجَّب حسب العادات التي اقتبسناها من المسلمين . فتقوم هناك باكرًا وتقرأُ الجرائد الانكليزية والهندية الى وقت الغداء وتتغدَّى مع اولادها ثم تمشي ساعةً او ساعتين في حديقة القصر حيث لا يراها احد من الرجال . ومن رأي سموها ان عادة الحجاب رديئة ولكنها تقول انهُ لا يستطيع احد ان يرفع الحجاب من بلاد الهند في الوقت الحاضر . وكثيرات من النساء يرغبن مثل سموها في رفع الحجاب ولكن الفريق الاكبر من الرجال غير المتعلمين لا يرون ذلك ولا يرغبون فيهِ ولا في تعليم النساء . اما نحن فمقتنعان بفائدة التعليم للنساء ولذلك عزمنا ان نعلم ابنتنا الوحيدة كما نعلم ابناءنا لان الامرأة المتعلمة اقدر من غير المتعلمة على إسعاد اهل بيتها وتثقيف عقولهم . ولسموها اهتمام شديد بتعليم النساء وهي لا تحسب انهُ يمكن ان يكون للمرأة في بلاد

الهند كل الحرية التي لها في اوربا ولا تظن ذلك صالحاً لها لان مقياس الحشمة رفيع جداً في البلاد الشرقية حتى لو لم يوجد الحجاب لبقي شيء من الانفصال بين الرجال والنساء . ومع ذلك فالحجاب عندنا خاص بالطبقات العليا اما نساء الفقراء فلا يتحجبن

وقد رأيت في اوربا اموراً كثيرة يحسن بي اقتباسها في بلادي كالتعليم الاجباري والاستقلال الاداري في الولايات وهذا استحسنهُ جداً وهو مثل النظام القديم الذي كان متبعاً في بلاد الهند حين كان اساس الادارة ان يدير اهل كل بلد شؤونهم بانفسهم . ولا اوفي الحكومة الانكليزية حقها مهما مدحتها لانها اعطت الاستقلال الاداري لاستراليا وهذا امر كنا نترقبهُ في بلاد الهند كما يترقبهُ غيرنا في سائر السلطنة الانكليزية

واقد ادهشني ما رأيتهُ في اوربا من اهتمام افراد الناس من غير الحكام بمصالح البلاد ومساعدة الفقراء ولكن يتعذر عليَّ ان اقابل بينهم وبين اهل الهند لان ليس عندنا جمهور كبير من الاغنياء المتعلمين المتهذبين من اهل الفراغ والجدة . وعندي ان ما يمتاز بهِ الانكليز من كرم الاخلاق والعزم والحزم هو نتيجة لازمة عن نمو تهذيبهم ونظام حكومتهم التي تقوي فيهم روح الاستقلال . ولا اقول ان هذا معدوم من بلاد الهند ولكني اقول انهُ يتعذر ظهورهُ ونموهُ في الاحوال الحاضرة

ومن شاء ان يعيش عزيزاً كريماً في بلاد الهند يترتب عليهِ ان لا يحاول الترفُّع على غيرهِ لان من يفُقْ غيرهُ عقلاً وذكاء يكرههُ الناس و يظنون بهِ الظنون . ولا يمهر الناس في السياسة والقيادة ما لم يروا امامهم ميداناً واسعاً لاستعمال مهارتهم . و يتعذَّر على اكثر الناس عندنا ان يميزوا بين الصواب والخطاء لطول ما حلَّ بهم من الجهل والفقر والاستعباد وليس عندنا احد يستطيع الانتقاد بالعلم والسداد مع ان هذا الانتقاد لازم لكل ارتقاء وطني . واود ان أُكثر المدارس التجارية والصناعية في بلادي وسائر المدارس العليا التي يتهذب فيها شبان البلاد "

وقد جرى نموهُ احياناً تجرى البساطة التامَّة في ما رواهُ عن نفسهِ واعمالهِ حتى لقد يود القارئ لو كُتبت بعض الامور بقلم غيرهِ عنهُ كقوله اني تصدقتُ بكذا وكذا وتصدَّقت زوجتي بكذا . ولكننا اذا اطَّرحنا المألوف من الحشمة الكاذبة لا نجد فرقاً بين من يتكلم عن نفسهِ اذا صدق ومن يلقِّن غيرهُ الكلام عنهُ بل الاول اقرب الى الصواب من الثاني لانهُ يخشى المبالغة واما الثاني فتضطرهُ المجاملة الى اطراء من يذكر حسناتهِ والمبالغة فيها ولا سيما اذا كان ملكاً . وتتدفَّق البلاغة من قلمهِ تدفُّقاً في اماكن كثيرة وهو يكتب بلغة غير لغتهِ الاصلية مما يدلُّ على وافر علمهِ وواسع فضلهِ . وسقياً لبلاد ملوكها علماء